# علاقة
# نجد بالشام

## من ١١٥٧هـ إلى ١٢٢٥هـ

بقلم/ عبدالله حمد الحقيل

**تمثل هذه المقالة عرضا وثائقيا سريعا وتسجل مرحلة من مراحل علاقة الدولة السعودية الأولى مع الشام والدولة العثمانية ويعتبر هذا المقال بمثابة محاولة مبدئية لدراسة الوثائق التي تحتاج منا الى المزيد من الدراسة والتفصيل والتحليل لتظل مرجعا مفيدا للباحثين والدارسين لحياة تلك المرحلة من تاريخ بلادنا.**

**ولقد لقيت بعض جوانب من تاريخ بلادنا في العصور المتأخرة اهتماما جيدا من لدن الباحثين ومن أبرز ذلك تلك الدراسات التاريخية التي غطت جوانب من تاريخ المملكة العربية السعودية ولاتزال هناك جوانب من ذلك التاريخ في حاجة الى القاء المزيد من البحث والتنقيب والدراسة.**

وفي بداية المقال أومىء بشيء من الايجاز عن نشأة الدعوة السلفية وانتشارها وما واجهته من حرب وخصومات.

ولما كانت هذه الدراسة عن العلاقات مع الشام وكما هو معروف فإن الشام هي موطن شيخ الاسلام أحمد بن تيمية وتلميذه محمد بن قيم الجوزية وهما الإمامان اللذان تأثر بهما الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ويقول الدكتور / منير العجلاني في كتاب «تاريخ البلاد العربية السعودية الجزء الأول ص ٢٣٧... كان الشيخ يحب ابن تيمية ويجله كثيرا ويطلب كتبه وأقواله في كل مكان وربما نسخها بخط يده ويقال انه طلب من الامام الصنعاني في اليمن عام ١١٨٠ كتبا لابن تيمية وابن القيم كانت عنده».

ومن المعروف أن الكثير من أبناء الشام وخاصة قبائل البادية قد أقبلت على اعتناق مباديء الدعوة ودفعوا الزكاة الى الامام عبد العزيز بن محمد وكما روى ابن بشر قائلا لقد ظهر مع عمال من حلب قاصدين الدرعية وهم ست نجائب محملات ريال زكوات بوادي أهل الشام.

ويدل هذا على أن ولاءهم لأمير الدرعية وليس لوالي الشام من قبل السلطان

العثماني.. ولقد ازداد النفوذ السعودي في عهد الامام سعود بن عبد العزيز وأصبح لهم دعاة هناك الى أن انتهى هذا الدور بسقوط الدولة السعودية الأولى حينما استطاع ابراهيم باشا تخريب الدرعية وأرسل الامام عبد الله بن سعود الى محمد علي باشا في مصر في ١٧ محرم ١٢٣٤هـ.

## أولا – نشأة الدعوة السلفية وانتشارها :

### (أ) نجد قبل الدعوة السلفية :

يفيض ابن غنام – وهو مؤرخ معاصر لتلك الفترة – عن انتشار الضلال لا في نجد وحدها بل في ديار المسلمين كافة فقد كان أكثر المسلمين – في مطلع القرن الثاني عشر الهجري – قد ارتكسوا في الشرك، وارتدوا الى الجاهلية، ونبذوا كتاب الله تعالى، واتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم لظنهم انهم أدرى بالحق فعمدوا الى عبادة الأولياء والصالحين. أمواتهم وأحيائهم يستغيثون بهم في النوازل والحوادث ويستعينون بهم على قضاء الحاجات وتفريج الشدائد، بل ان بعضهم كان يرى في الجمادات كالأحجار والأشجار القدرة على تقديم النفع ودفع الضرر.. فغدوا اليها يبتهلون لقضاء حاجاتهم فأحلوا بذلك ما حرم الله ونسوا قوله تعالى (لا تتخذوا إلهين اثنين، إنما هو اله واحد فإيّاي فارهبون). وعين هذا الأمر كان يحدث في نجد حتى ان ابن غنام يقول في ذلك: «وقد كانت من بين هذه القبور قبور تنسب الى بعض الصحابة يحج اليها بعض الناس ويطلبون منها قضاء الحاجات»(١).

ولم تكن الحالة السياسية في نجد أحسن حالا من الحالة الدينية وفي ذلك يقول الدكتور منير العجلاني «فقد كانت هناك مجموعة كبيرة من الامارات والمشيخات تنفرد كل واحدة منها بسلطانها وتعتز باسمها ولا ترى شيئا فوقه، وقد تتحالف أحيانا لقتال الآخرين واستباحة ديارهم وأموالهم، ولكنها متى فرغت من قتال عدوها، عادت تتقاتل فيما بينها ولما يجف مداد عهدها ودم جندها..

وكانت البلاد تعيش في رعب دائم، بين عدو يأخذها بالقهر، وحليف بالغدر، وماكانت تعرف السكينة، والأمن والحرية الا قليلا(٢).

## ثانيا – الشيخ محمد بن عبد الوهاب – سيرته ودعوته:

هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد ابن بريد بن محمد بن مشرف التميمي، ولد سنة خمس عشرة بعد المائة والألف من الهجرة في بلدة العيينة من بلدان نجد(٣) عند أبيه عبد الوهاب بن سليمان القاضي فيها زمن عبد الله بن محمد بن حمد بن عبد الله بن معمر الذي قويت العيينة في زمنه، قبل انتقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب منها الى بلدة حريملاء(٤).

تلقى الشيخ محمد العلم أيام الطفولة في بلدته العيينة، فحفظ القرآن قبل بلوغه العاشرة من عمره، وكان جاد الفهم، وقّاد الذهن، سريع الحفظ، فصيحا فطنا(٥)، فقرأ على أبيه في الفقه وكان رحمه الله في صغره كثير المطالعة في كتب التفسير والحديث وكلام العلماء في أصل الاسلام. فشرح الله صدره في معرفة التوحيد وتحقيقه ومعرفة نواقضه المضلة، عن طريقه. وكان الشرك اذ ذاك قد فشى في نجد وعلى نحو ما أوضحنا بايجاز من قبل.

وبدأ الشيخ رحلاته العلمية المثمرة بحج بيت الله الحرام، ثم أقام في المدينة المنورة حيث أخذ فيها العلم عن الشيخ عبد الله بن ابراهيم النجدي ثم المدني، وكذلك أخذ عن الشيخ محمد حياة السندي المدني، ثم قصد البصرة وفيها سمع الحديث والفقه من جماعة كثيرين، وقرأ بها النحو وأتقنه. وكان أثناء مقامه في البصرة ينكر ما يرى ويسمع من الشرك والبدع، وينشر أعلام التوحيد، ويكرر على الناس أن العبادة كلها لا تصلح الا لله. فلما تكرر منه ذلك آذاه بعض أهل البصرة، وأخرجوه منها وقت الهجير، فانثنى في النهاية عائدا الى نجد وفي طريقه اليها مر بالأحساء ونزل فيها على العالم عبد الله بن محمد بن عبداللطيف

الشافعي الأحسائي.

ثم اتجه الى بلدة حريملاء التي كان أبوه قد انتقل اليها عام ١١٣٩هـ، فأعلن دعوته، اشتد من انكاره لمظاهر الشرك والبدع، وجد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. فذاع ذكره في جميع بلدان العارض وانقسم الناس فيه فريقين: فريق تابعه وبايعه وعاهده على ما دعا اليه، وفريق عاداه وحاربه وأنكر ذلك عليه وهم الأكثر(٦) ولما أحس الشيخ بالخطر يتهدده في حريملاء عاد الى العيينة فأكرمه رئيسها يومئذ عثمان بن حمد بن معمر وتزوج فيها من ابنة عبد الله بن معمر.

عرض الشيخ علي عثمان دعوته فاتبعه وناصره وألزم الخاصة والعامة أن يمتثلوا أمره. وكان في العيينة وما حولها كثير من القباب والمساجد والمشاهد المثبتة على قبور الصحابة والأولياء، والأشجار التي كانوا يعظمونها كقبة قبر زيد بن الخطاب في الجبيلة فخرج الشيخ محمد ومعه عثمان وكثيرون بالمعاول فقطعوها وهدموها.. وكان الشيخ هو الذي هدم قبر زيد بن الخطاب بيده.

وجاءت امرأة زَنَتْ تعترف للشيخ فتثبت الشيخ من أمرها عدة مرات حتى لم يعد هناك شك فطلب من الوالي تنفيذ حكم الله فيها، فطارت قلوب أهل البدع والضلال خوفا فشكوه الى شيخهم سليمان آل محمد رئيس بني خالد في الأحساء فكتب الى عثمان يأمر بقتل الشيخ أو اجلائه عن بلده، وهدده بأنه ان لم يفعل ذلك قطع عنه خراجه في الأحساء واستباح أمواله لديه، وعندئذ آثر عثمان أن يأمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالخروج من العيينة.

فخرج الشيخ الى بلدة الدرعية وكان ذلك سنة سبع أو ثمان وخمسين ومائة وألف واستقر به المقام فيها عند الشيخ أحمد بن سويلم حيث أتاه الأمير محمد ابن سعود ومعه أخواه ثنيان ومشاري وسلم أمير الدرعية على الشيخ، وأبدى له غاية الكرم والتبجيل، وأخبره بأنه يمنعه بما يمنع به نساءه وأولاده. وأخذ الشيخ يشرح معنى التوحيد الحقيقي وبعدها عاهده الأمير على النصرة له وعلى الجهاد لمن خالف التوحيد، لقد كان محمد بن سعود زعيما وقائدا وكان محمد بن

عبدالوهاب هاديا وداعيا الى الله.. وبفضل تعاونهما حطمت الأوثان، وهدمت الأبنية المقامة على أضرحة الأولياء، ونفذت أوامر القرآن(٧).

وقبلُ أن نعرف شيئا عما أسفر عنه هذا اللقاء التاريخي الشديد الأهمية من نشر دعوة الشيخ في أرجاء الجزيرة العربية يمكننا أن نلخص العوامل التي جعلت من الشيخ داعيا مصلحا وهي:

(أ) البيت : فقد نشأ الشيخ في بيت علم وكان والده ضليعا في الفقه.

(ب) الدراسة : فقد حفظ القرآن في سن صغيرة ثم انكب على كتب الفقه وبخاصة كتب ابن تيمية وابن القيم.

(جـ) الشخصية : اذ أن الشيخ كان ذو شخصية قوية وحجة سليمة وقدرة على الاقتناع طلق اللسان لا تفتر همته.

(د) الرحلات العلمية : وقد أشرنا الى البلاد التي ارتحل اليها وأخذ من علمائها مما وسع من آفاقه.

(و) البيئة : فقد نشأ في بيئة مليئة بالبدع والفتن فتحداها بإيمانه.

(هـ) مناصرة الامام محمد بن سعود له وهي أقوى عوامل نجاح الدعوة.

## استعدادات والي الشام لمواجهة ابن سعود في الحجاز :

كانت الشام تابعة للدولة العثمانية أيام نشأة الدولة السعودية الأولى فقد كانت ولاية من الولايات الهامة التي يعتمد عليها الحكم العثماني.

لم يعر السلطان العثماني محمود الأول (١١٤٣ – ١١٦٨هـ = ١٧٣٠ – ١٧٥٤م) مسألة نجد أُذناً صاغية، عندما قامت الدولة السعودية الأولى فيها سنة ١١٥٨هـ ١٧٤٥م، لأنه اعتبر ما حدث مجرد حركة سطحية آنية، لن تلبث أن تختفي وتتلاشى دون التعرض لها أو مجرد التفكير في ذلك. وتطالعنا الوثائق التركية بتقارير كثيرة كتبها الشريف غالب بن مساعد أمير مكة المكرمة عن الدعوة السلفية وابن سعود. لكن السلطان العثماني اعتبر هذه التقارير مليئة بالمبالغات والمفارقات التي لا تصدق بعد أن أحال الموضوع الى «مجلس المشورة» لأخذ الرأي في مواجهة الموقف في نجد. وتوالت تقارير الشريف غالب يستنجد بالدولة العثمانية، ويحثها على مواجهة الموقف، ولكن ذهبت كل مساعيه هباء، حيث لم تنظر الدولة العثمانية للموضوع الا أنه يكون عبارة عن خلافات شخصية بين الشريف وابن سعود، ولن تؤدي الى ضرر بالدولة العثمانية وسيادتها على المنطقة.

ولم يتوقف الأمر على الشريف بل ان والي بغداد ووالي الشام قاما بكتابة تقارير عن نجد وعن ابن سعود وعن الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وكانت هذه التقارير تشكو من كثرة الأنصار والأتباع في نجد وما حولها حتى منطقة الحرمين الشريفين. فقد دخلت في الدعوة قبائل كثيرة أصبحت تدافع عن الدعوة وتعيش لها وتعتنق مبادئها تدعو اليها وتود التضحية والفداء في خدمة مباديء الاسلام الصحيحة التي تنادي بها هذه الدعوة(٨).

وعندما كثرت التقارير وتعددت مصادرها، لم يجد السلطان أمامه الا أن يصدق ما ذكر له، فبدأ في النظر الى الموضوع على أنه مسألة خطيرة وهامة تدعو الى مواجهتها بكل حزم وقسوة، قبل أن يستفحل أمرها ويتسع نطاقها.

ودور الوثائق التركية مليئة بالوثائق الخاصة بتكليف السلطان العثماني لوالي بغداد بمواجهة ابن سعود، ولكن والي بغداد وجد انه لا قبل له باجتياز صحراء نجد القاحلة اذ هي صعبة المسالك ووعرة الدروب، فأخذ يعد السلطان بتنفيذ

المهمة التي أوكل اليه تنفيذها. وعندما كثر الحاح السلطان عليه أخذ يسوف تحت ستار البدء في التجهيز والاعداد. وأخبر السلطان بأن المهمة تحتاج الى وقت لكي يتم الاعداد الكافي، لأن المهمة صعبة وشاقة. وكثرت فرمانات السلطان لوالي بغداد، يأمره بأن ينفذ ما كلفه به. ولما أحس والي بغداد بأن المهمة شاقة وعسيرة نظرا لعدم وجود المياه والكلأ في الطريق ووعورة الصحراء وخطورة اجتيازها، وقلة الامكانيات المالية، وعدم توفر التجهيزات والمعدات العسكرية اللازمة للغرض. كما أن والي بغداد وضع في حسابه انه لا قِبل له بتنفيذ المهمة، نظرا لقوة ابن سعود وشدة بأسه. فأخذ يراوغ ويتعلل بعدم المقدرة منفردا بالقيام بما كلف به. وأشار على السلطان بأن يكلف والي الشام ووالي مصر بالمهمة لأن اجتياز صحراء نجد من ناحية العراق تحفه المخاطر والصعوبات، نظرا لإمكانية الضياع في الصحراء الشاسعة الموحشة، وتوقع مفاجأة ابن سعود للجيش الزاحف نحوه في هذه الصحراء التي لا ملجأ فيها ولا مأوى، فتكون النتيجة كارثة على الجيش المتحرك الذي يمكن لقوة ابن سعود الهائلة إفناءه وتدميره عن آخره. كما تعلل والي بغداد بالخطر المرتقب على العراق من جهة ايران، نظرا لأطماعها في تلك المناطق التي بها الأماكن المقدسة الخاصة بهم. وأشار الى الحشود المستمرة على الحدود الايرانية العراقية من القوات الايرانية ومن القوات العراقية تحسبا لما عسى أن يحدث.

ولما يئس السلطان العثماني من والي بغداد، اتجه الى والي الشام علّه يجد فيه ضالته التي افتقدها في والي بغداد..

وهنا يجدر بنا الحديث مفصلا عما حدث من والي الشام بعد تكليفه بمهمة مواجهة ابن سعود.

## ١ – عهد يوسف باشا :

أرسل والي الشام يوسف باشا في ١١ جمادى الأولى سنة ١٢١٥هـ تحريرات الى السلطان العثماني يخبره فيها بأن محمد على باشا قام بالاتصال بالشريف

غالب بعد أن صدر اليه الأمر العالي بمهمة مواجهة آل سعود. وأن محمد علي يرى أن المهمة ستكون شاقة لو أن الشريف أخذ جانب ابن سعود بعد أن قوى حصون جدة، حيث أن الذخائر والعساكر لن يمكن نقلها الى الأراضي الحجازية والأمر كذلك. ويهيب بالسلطان أن يعهد اليه بغزة ويافا لتسهيل نقل المؤن والذخائر من السويس.

ويفهم من هذه الوثيقة الى أن والي الشام أقنع السلطان العثماني بأن المهمة لا يمكن أن يقوم بها وحده، ولكن ينبغي أن يكون الدور الأكبر فيها لمحمد علي باشا(٩).

وبدأ كبار الشخصيات في الحجاز وبغداد والشام يرسلون التقارير أيضا عن الدعوة السلفية وأصحابها، بتكليف من ولاة الدولة العثمانية في هذه المناطق أو بأمر من الدولة العثمانية ذاتها.

كتب قاضي الشام سيد محمد نور الله أفندي في ١٣ ذي الحجة سنة ١٢١٧هـ تقريرا للسلطان العثماني عن بعض الأمور الخاصة بالشام وعن عزيمة السلفيين التحرك نحو الحرمين الشريفين والبصرة وبغداد(١٠).

## ٢ – عهد أحمد باشا الجزار :

استقر رأي السلطان على تعيين أحمد باشا الجزار واليا على الشام وسردارا (قائد عام الجيش) على الحجاز، لما عرف عدم جدية والي الشام السابق في تنفيذ مهمته وتكاسله(١١).

وبعد هذا التعيين دخل عبد العزيز بن حمد بن سعود المدينة المنورة فاتحا، فأغضب هذا التصرف السلطان العثماني وأرسل الى أحمد باشا الجزار يحثه على مواجهة ابن سعود، وقد رد عليه الجزار قائلا بأنه أذعن للأمر وسينفذ ما أمر به حالا(١٢).

ولما أحس السلطان العثماني بأن الموضوع لم يؤخذ مأخذ الجد ولم يحدث فيه شيء أمر الصدر الأعظم بكتابة فرمانات وأوامر الى كل من والي بغداد لتعيينه سردارا من جهة العراق على الحجاز بالاضافة الى التعيين السابق لأحمد باشا الجزار سردارا على الحجاز أيضا لقيادة الجيش الشامي الى الحجاز. وقد تضمنت الأوامر التي وصلت الى والي الشام الاستفسار عن مقدار العساكر التي أرسلت الى الحجاز ونوع الذخائر(١٣).

أحس الصدر الأعظم بأن الشام مليء بالاضطرابات والقلاقل ولا يجوز في هذه الظروف والأوضاع تحرك أحمد باشا الجزار الى مهمته في الحجاز قبل رأب الصدع في الشام الذي امتلأ بالقلاقل والفتن التي يثيرها العربان هناك. فأوصاه في رسالة بعث بها اليه في شوال ١٢١٨هـ باصلاح أمور الشام أولا قبل القيام بمهمة الحرمين بالتعاون مع علي باشا والي مصر(١٤).

ورغم كل ذلك فان أحمد باشا الجزار لم يأخذ الموضوع بجد وأخذ يراوغ لأنه أحس أنه لا يقدر على تحدي ابن سعود. والوثيقة التالية تدل على أن الجزار لم يفعل شيئا بخصوص موضوع الحجاز. فلم يستعد بالعساكر ولا حتى بالذخيرة والمهمات الأخرى، ولا هو تحرك لأخذ أي خطوة عملية في هذا السبيل وقد قام رئيس الكتاب بكتابة تقريرا بما آل اليه الوضع بالنسبة للجزار وقدمه للسلطان. وقد ذكر فيه أن الجزار أرسلت اليه الأوامر السامية بخصوص مهمة الحجاز مرارا وتم استعجال الموضوع عدة مرات ولكن النتيجة واحدة، وهي أنه لم ينفذ أي شيء(١٥).

(للحديث صلة)

# الهـوامش

(١) انظر حسين بن غنام، تاريخ نجد، تحقيق د. ناصر الدين الأسد، مصر سنة ١٣٨١هـ /١٩٦١م ص١١، ٢١، وانظر للشيخ أحمد بن عبد العزيز آل مبارك رئيس القضاء الشرعي بدولة الامارات العربية المتحدة، «حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآثاره العلمية» وقد نشر في كتاب حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآثاره العلمية نشرة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية الرياض ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م.

(٢) د. منير العجلاني، تاريخ البلاد العربية السعودية، ج١ عن الدولة السعودية الأولى، بيروت ص٣٥، ٣٦.

(٣) حسين بن غنام، المرجع السابق ص ٧٥.

(٤) عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، جـ١ المملكة العربية السعودية ١٣٩٤هـ ص١٩.

(٥) حسين بن غنام، نفس المرجع نفس الموضع.

(٦) ابن غنام المرجع السابق ص ٧٦، ٧٧.

(٧) هذا مما أورده الدكتور منير العجلاني، المرجع السابق جـ١، ص٣٨، ٣٩ وهو ينقل عن آرمسترونج المؤرخ وصفه للقاء التاريخي بين ابن سعود وابن عبد الوهاب.

(٨) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /١٣٦ من مقتنيات دارة الملك عبد العزيز وهي عبارة عن تقرير من أحمد باشا الجزار والي الشام وصيدا.

(٩) انظر الوثيقة ٤ /١ /٢٢ من مقتنيات الدارة.
(١٠) انظر الوثيقة ١ /٢ /٤٣٥ من مقتنيات الدارة.
(١١) انظر الوثيقة ٥ /١ /٩٩ من مقتنيات الدارة.
(١٢) انظر الوثيقة ٤ /١ /٧ من مقتنيات الدارة.
(١٣) انظر الوثيقة ١ /٢ /٣١ من مقتنيات الدارة.
(١٤) انظر الوثيقة ١ /٢ /٤٢٠ من مقتنيات الدارة.
(١٥) انظر الوثيقة ١ /٢ /٢٠ من مقتنيات الدارة.